

## المشروع العقلاني الديكارتي:

لا يشك أحد في أن الفيلسوف يستمد مفاهيمه من وسطه الثقافي، لكن هذا لا يحول دون تميزه الذي يظهر في إعطاء هذه المفاهيم مضامين جديدة وفي قدرته على وضعها في نسق محكم الأجزاء، يصدق هذا الحكم على "روني ديكارت" René Descartes (1596-1650) الذي لم يقتنع بالمعطى الثقافي السائد الذي كان مهيمنا بشكل صارخ على العقول التي وقعت تحت الوصاية الدينية التي قامت على مصادرة الحرية الفكرية.

### 1- الشك وتأثيره في الانقلاب المعرفي:

هذه الملامح الفكرية التي بدأت بإعلان العودة إلى العقل والشك في الموروث الفلسفي الذي تركته العصور الوسطى، كانت من الدوافع الفكرية التي جعلت "ديكارت" يستحدث طريقة جديدة في التفكير وتأسيس مفاهيم فلسفية وعلمية قادرة على الصمود وتخطي ما هو مألوف، إذ يقول: "لا أقبل من أحكامي إلا ما ظهر لي في وضوح وتميز أنه لا يمكن الشك فيه". يتحدد هنا أن "ديكارت" هو أول من علم الإنسان الأوروبي أن يقول: "لا"، فيما قبل - أي العصور الوسطى - كان الأوروبي يقول: "نعم"، أي الخضوع للسلطة (سلطة الإقطاع / سلطة الكنيسة / سلطة القيم...). أتى "ديكارت" فقال: "لا" وما الشك المنهجي، إلا رفضا للإرث الإقطاعي - الكنسي - المسيحي.

في نفس الفترة تقريبا ظهر في إنجلترا "فرانسيس بيكون" Francis Bacon (1561-1626)، ليقول نفس الشيء ولكن في مجال آخر هو مجال العلوم الطبيعية، بحيث دعا إلى رفض الأوهام التي تمنع العقل من الوصول إلى الحقيقة، أي اكتشاف القوانين الفيزيائية التي تخضع لها الطبيعة والإنصات والخضوع لها من أجل فهمها، قصد السيطرة عليها حين تكتشف القوانين التي تنظمها.

هذا المشروع الحداثي الذي بدأ يبشر بأفق فكري جديد، سعى "ديكارت" إلى الانخراط أيضا في تأسيس مفاصله، حين قام على رغبة عنيفة في إحداث تغيير شامل يستهدف الكشف عن السر الذي كان معقلا للإيمان، فصراع الحداثة مع العصور الوسطى، هو صراع العقل ضد الإيمان، فالمعرفة التي تصبح منشودة، هي المعرفة العملية التي تكون لها غاية السيطرة على الطبيعة و تنصيب الإنسان سيادا عليها بعد أن كان عبدا في العصور الوسطى، ومن هنا تتجلى ضرورة إعادة الاهتمام بالمعرفة

وتأسيس العقل من جديد، فقد وضع مشروعاً فلسفياً جديداً، مخالف للفلسفة التقليدية التي كانت سائدة في أوروبا إبان مرحلة العصور الوسطى، "تسعى فيه الفلسفة إلى تحصيل معرفة كاملة حول الأشياء التي يرغب الإنسان في معرفتها"<sup>1</sup>.

هذه التوجهات الفكرية التي باشروها "ديكارت"، كانت بداية قوية لإحداث الوعي النقدي الذي سوف يؤثر السلوك والوعي لدى الإنسان الغربي، الذي بدأ بتنصيب معالم العقلانية ويضع لها منهجاً عبارة عن خطوات يضمنها كتابه مقال في المنهج، في بداية هذا الكتاب يعلن "أن العقل هو أعدل قسمة بين جميع الناس"، فإذا كان الأمر كذلك، فإن العقل سيصبح المعيار الوحيد الذي يتحرى الحقيقة، ويجتهد في وضع سلسلة من المفاهيم التي تنمي القدرات العلمية والمعرفية لفهم الواقع وتغييره.

"أما فلسفياً، فإن ديكارت يدعو إلى اعتماد العقل في تحصيل الحقيقة، قاصداً بذلك أن يكون الجهد الذي يبذله الفرد هو مصدر بلوغ هذه الحقيقة وليس إتباع ما يسود من أفكار. كما تميزت مساهمته الفلسفية بالمحاولة التي قام بها في الحقائق الميتافيزيقية الكبرى وبنائها على أساس منهجي جديد تكون فيه الحقيقة متميزة بالوضوح"<sup>2</sup>، ومن هذا الباب، فإن بلوغ هذه الغاية تقتضي التمسك بطريقة عقلية محكمة البناء عندما تسودها حركة استدلالية سليمة في مقدماتها ونتائجها، "لأن الطريقة تمثل القاعدة العامة التي تتشكل من خلالها المعرفة"<sup>2</sup>.

إذا كان "أفلاطون" سعى في محاولاته لإقامة نظرية كاملة عن المعرفة، فإن "ديكارت" يستعيد هذه الرؤية حول إمكانية حلول المحسوس كعائق أمام بلوغ الحقيقة، مما يفرض ضرورة تجاوز التجربة الحسية والجسدية للمعرفة عند التخلص من حمق الجسد، وهذا ما جعله يعتبر الشك هو الطريق الأمثل نحو رصد الحقيقة، "فالحقيقة الميتافيزيقية هي اكتشاف الفكر، والفكر هو شيء يعرف بذاته ولا يمكن إرجاعه إلى شيء آخر من أجل معرفته"<sup>(2)</sup>، مادام لا شيء يقيني، فالحواس تخدعنا وتضللنا، وما يخدع لمرة قد يخدعنا لمرات، لذا فالحقيقي هو ما يمتاز بالوضوح والبداهة، وما لا يقبل الشك هو

<sup>1</sup>- R. Descartes : Les principes de la philosophie, Edition Gallimard, Paris 1953, p.557

<sup>2</sup> - محمد وقيدى : ما هي الاستيمولوجيا؟، دار الحداثة للطباعة والنشر والتوزيع، لبنان، 1987، ص 60.

<sup>2</sup>-Octave Hamelin : Le système de Descartes, Ed, F. Alcan, Paris, 1911, p.105.

<sup>(2)</sup>- J-L. Dumas: Renaissance et siècle des lumières, T2, édition, Tallandier, 1990, p.97.

الحقيقة الفطرية التي تستنبطها النفس من تلقاء ذاتها، لأنها واضحة بسيطة أولية وبديهية ما دامت جزءا من تركيب العقل.

هذا الشك الفلسفي الذي مارسه "ديكارت"، يعود إلى سبب تاريخي وسبب معرفي؛ فالتاريخي يعود إلى النزعة الشككية التي انتشرت في فرنسا خصوصا عند "مونتاني" Michel Eyquem de Montaigne<sup>(\*)</sup>، فأراد أن يواجه هؤلاء الشكاك<sup>(\*\*)</sup> لتبيان نقائصهم، أما الشك المعرفي فيحمل أغراضا منهجية للوصول إلى الحقيقة، فلم يكن الشك في هذه الحالة مقصودا لنفسه، بل لامتحان معارفنا وقوانا العارفة، كما يحاول بهذا الشك الاستجابة إلى الثورة العلمية التي فجرها كل من "كوبرنيك" و"غاليلي" و"كبلر" في مجال علم الفلك والفيزياء التي غيرت الكثير من التصورات والمفاهيم حول الظواهر الكونية ونظرة الإنسان إلى نفسه وعلاقته بالعالم المحيط به.

إن مبدأ الشك يعني في العرف الفلسفي هو "ملكة أو سلطة الاعتراض على مختلف التمثلات الحسية أو التصورات العقلية وبكل الوسائل الممكنة من أجل من أجل الوصول إلى عمق الأشياء واحداث التوازن العقلي الذي يخص تعليق الحكم وكذلك تحقيق الاطمئنان على مستوى النفس"<sup>1</sup> بينما الشك الذي شرع "ديكارت" في طرح مسائله وموضوعاته، كان يحمل بصمات منهجية وثقلا فكريا قويا مسلحا بالنقد الذي يستهدف الوصول إلى الحقيقة عندما تنهيا له أسباب التعرف على مفهوم الذات الذي تستقر عليه الأرضية النظرية للعمل الفلسفي، ففكرة الكوجيتو: "أنا أفكر أنا موجود"، تعد من بين المفاهيم الأكثر شهرة في الفلسفة الحديثة، لما تشكله من خصوبة فكرية .

هذا المفهوم أكدنا به عن البداية الفلسفية والبداية التاريخية التي تبحث عن استقلالية العقل عن الأمور الميتافيزيقية؛ هذا الاستقلال جدير بأن يجعل من العقل ملكة تمارس نشاطها الفكري بحرية بعيدا عن كل سلطة معرفية خارجية، فالذات يمكن لها أن تعي نفسها بدون وجود وسيط، وبالتالي

---

(\*) - مونتاني Michel Eyquem de Montaigne ( 1533 - 1592): فيلسوف فرنسي ، عرف بنزعته الشككية، وكان له تأثير بالغ في كثير من المفكرين والفلاسفة مثل جسندي، و بيكون، وديكارت.

(\*\*) - كلمة سُكَّاك في اليونانية تطلق على من ينظر بإمعان، من يفحص باهتمام قبل أن يقوم بإصدار حكم على شيء أو قبل أن يتخذ أي قرار.

<sup>1</sup>-Jean -Paul Dumant : Les sceptiques Grecs, Ed, PUF , Paris, 1966, p.9.

فهي لا تحتاج إلى أي وصاية أو سلطة تفرض عليها الحقيقة؛ ففكرة العودة إلى الذات، هي في الأساس عودة إلى إحياء النفحة السقراطية القائلة: "أعرف نفسك بنفسك".

هذه الذات المفكرة، يضمن وجودها الله، لأن اللجوء إليه يعتبر منفذا للخروج من دائرة الشك ولضمان صحة بقية المعارف الأخرى من الناحية الميتافيزيقية والوجودية للعالم. والله عند "ديكارت" هو كل شيء، وهو الحقيقة الأولى الضامن للعالم المثبت له، ولا يمكن إثبات وجود العالم قبل إثبات وجود الله.

إن إعادة النظر في مسألة الذات، ستخضع لمجموعة من الفحوصات الفلسفية التي تحمل غطاء فكرياً ونظرياً حول الحقائق التي يمكن أن تكون لها بداية قاعدية لكل نسق معرفي يريد بناء مفاهيم عقلية محصنة من اللواحق العقديّة والإيمانية، فلا يمكن تحقيق تقدم فكري إلا بعد الإقرار، بأن الذات المفكرة هي العنصر الفاعل والواعي الذي يعتبر مفتاح القول الفلسفي الحديث، وقد وصل إليها "ديكارت" عندما قام بتعريفها من الأفكار المسبقة، فهي تتركب لغويًا من ثلاثة مفاهيم (الأنا، الفكر، الوجود)، تقدم كلها الانطولوجيا والمعرفة في عملية إدراك واحدة: عملية التفكير تفترض منطقيًا وجود الأنا: فبما أنني أفكر، لذلك أنا موجود، والمسألة لا تتعلق بقياس منطقي نستنتج بواسطته الوجود من الفكر، وإنما نمر من مفهوم لآخر بحس مباشر، فكل فرد موقن عن طريق حدس مباشر، من وجود فكره الخاص وتأملاته العقلية المشروعة، فتصبح هذه الفكرة لا تخضع للشك العام، ومنهج الفلسفة حدس المبادئ البسيطة، واستنباط قضايا جديدة من المبادئ لكي تكون الفلسفة جملة واحدة<sup>1</sup>.

## 2- حدس الذات:

"لا يختلف الحدس من الناحية الاصطلاحية عن المفهوم اللغوي له، فهو معرفة حقيقية بيّنة، مهما كانت طبيعتها، تستعمل مبدئياً للتركيز على الاستدلال النظري، وتدور حول الأشياء وحول علاقاتها أيضاً، ومنه نقول، فكر حدسي في مقابل فكر استنتاجي وهو الذي يرى توليفاً والذي ينشأ بدلاً من الاستدلال العقلي بتحليل وتجريد"<sup>2</sup>.

<sup>1</sup> - يوسف كرم: تاريخ الفلسفة الحديثة، دار القلم، بيروت لبنان، (د، ت)، ص 63.

<sup>2</sup> - André Lalande: vocabulaire technique et critique de la philosophie

إن المفهوم الحدسي ليس مجرد كلمة، وإنما هو إدراك مباشر لموضوع فكري، يتحدد في الرؤية العقلية، فالحدس كما يعرفه ديكارت: " أقصد بالحدس لا الشهادة المتغيرة للحواس ولا الحكم الخادع للمخيلة التي تسيء تركيب موضوعها، وإنما أقصد به إدراكا من ذهن خالص ومنتبه، إدراكا هو من اليسر والتميز بحيث يرتفع به كل شك عما نفهمه، أو قل الحدس هو الإدراك الراسخ لذهن خالص ومنتبه، الناشئ عن نور العقل وحده والذي هو أيقن من الاستنباط، لأنه أبسط منه"<sup>3</sup> ، فأفعال العقل التي تُوصل إلى المعرفة ترجع إلى فعلين اثنين وهما؛ الحدس من ناحية، والاستنباط من ناحية أخرى، إذ يعتبر الاستنباط هو استعمال الحدوس للمرور إلى النتائج عبر سلسلة منطقية كاملة حتى تصل إلى اليقين. والمنهج هو الاستعمال الجيد للحدس والاستنباط الذي يجمع بين النظام الذي تتبعه أحكامنا الثابتة والنظام الواقعي للأشياء.

إن الحدس الذي يمكن الاعتماد عليه، كلما كان ذلك ممكنا، يفترض وجود طبائع بسيطة وحقائق ثابتة، ولا يستطيع إزاءها إلا القبول والتسجيل، وخلالها " أوضح ديكارت أن الحدس يتميز عن الاستنتاج وأن الحدس لا ينصب على أفكار بسيطة فحسب، بل هو أيضا مطلوب لإدراك ترابط القضايا في كل استدلال"<sup>1</sup>. هذا يعني أن "ديكارت"، يرى في منهج العلوم الرياضية، مميزات البدهة والوضوح والدقة، والذي يكشف عن إمكانية تطبيقه في دراسة موضوعات الطبيعة، فيرى في ذلك علامة على إمكانية تطبيقه في كل بحث يروم الحصول على حقيقة يقينية أثناء تناول الموضوعات التي يشتغل في نطاقها الفكر الإنساني بصورة جادة.

فالبرهان الرياضي الواضح والدقيق لا ينطبق إلا على المسائل الرياضية، ولا يفيد خارجها إلا في المسائل الميكانيكية. " جاء العصر الحديث ابتداء من القرن السادس عشر فربط بين العلم الطبيعي ( واسمه من الآن فصاعداً: الفيزياء) وبين الرياضيات، كما هو ظاهر عند كبلر وجاليليو. وجاء ديكارت في كتابه " مبادئ الفلسفة" ( سنة 1644) فأرجع الظواهر الفيزيائية إلى حركات تحت تأثير الضغط والصدم؛ ومن ثم وضع فيزياء هندسية - حركية. واستنبط من عدم تغير الله مبادئ حفظ المقادير

<sup>3</sup> - R. Descartes : Œuvres et Lettres, La pléiade, Gallimard, 1953, pp. 43-44.

<sup>1</sup> - R. Blanché : Le raisonnement, éd, PUF, Paris, 1973, p. 35.

الفيزيائية. وفي إثره قام هوبجزر ولينتس بتحديد مبادئ حفظ القوى. ونيوتن أدخل بديهيات الميكانيكا وقانون الجاذبية في تفسير الحركة"<sup>2</sup>.

### 3- مسألة اليقين:

نظرا لهذه الدواعي الفكرية المتعلقة بالمسائل المنهجية والمعرفية والعلمية، فإن التفكير في اليقين يعدّ النموذج الاستيمولوجي الوحيد والمقبول في بعض الموضوعات التي ينطبق عليها، مثل المعرفة الرياضية"<sup>3</sup>. لذلك يستوجب أن تكون الذات المفكرة في تحديدها المنهجية منسجمة مع فهمها لماهية العقل، فهي تعتقد أنها تحمل قليلا بديهيات وأفكار فطرية، ولذا لا بد من تفعيل النشاط الحدسي للامساك بالبديهيات ثم تشغيل الاستنباط ليستخرج من البداهة ما يلزم عنها من معارف، فالمنهج الاستنباطي يكون أسلوبا في توجيه التفكير وقيادته من أجل الوصول إلى الحقيقة، والحقيقة التي يريد "ديكارت" بلوغها ليست الحقيقة التي يكتفي العقل الفردي بأن يتلقاها فحسب، بل إنها الحقيقة التي يعمل هذا العقل على اكتشافها أو إعادة بنائها بنفسه، هذا لم يمنع "ديكارت" أن يثور في هذا الشأن على المنطق الأرسطي الذي لا يؤدي في نظره إلى بلوغ الحقيقة.

على هذا النحو، تمكن "ديكارت" من تأسيس ميتافيزيقا ذاتية التي تنطلق من التفكير إلى الوجود وتكشف عن حقيقة الإنسان من جهة العامل العقلي وعن طريق التأمل الميتافيزيقي وتثبيت وجود "الأنا" من حيث هو جوهر مفكر، ويكون "الكوجيتو" شرط أولي للمعرفة واليقين الأول الذي يسمح بظهور اليقينيات الأخرى التي تمتد إليها الميتافيزيقا على أساس أنها تنظر في كل البحوث والمعارف، لاسيما وأنها العلم الذي يبحث في أسس المعرفة والأشياء بهدف الوصول إلى المبادئ الأولى والعلل القصوى. يقول ديكارت: " ينبغي أن نبدأ بالفحص عن هذه العلل الأولى، أي الفحص عن المبادئ وأن هذه المبادئ لا بد أن يتوافر فيها شرطان: أحدهما أن يكون من الواضح والبداهة بحيث لا

<sup>2</sup> - عبد الرحمن بدوي: موسوعة الفلسفة ج3، منشورات ذوي القربى، إيران، ط2، 2007، ص 249.

<sup>3</sup> - Jean-Luc Marion: sur l'ontologie grise de Descartes, Librairie philosophique, J.Vrin, 2000, p. 35.

يستطيع الذهن الإنساني أن يرتاب في حقيقتها متى أمعن النظر فيها، والثاني أن تعتمد عليها في معرفة الأشياء الأخرى... بحيث لا يكون في سلسلة الاستنباطات شيء إلا وهو بين كل البيان<sup>1</sup>.

تأتي مهمة الفلسفة في نظر "ديكارت" في دراسة الحكمة؛ هذه الحكمة تفضي إلى معرفة كاملة لكل ما يستطيع الإنسان أن يعرفه، فإذا كانت المعارف والعلوم تخضع لسلم تراتبي، فإن الفلسفة هي الشجرة التي تكون جذورها الميتافيزيقا وجذعها الفيزياء والفروع التي تخرج من هذا الجذع هي مختلف العلوم الأخرى، وهي: الطب والميكانيكا والأخلاق.

إن القضايا العلمية من حيث الأساس المعرفي، تحتاج إلى تطبيق منهجي، وهذا المنهج يتفرع إلى مجموعة من القواعد التي تتجلى في البداهة والتحليل والتركيب والإحصاء، هذه القواعد تعد بمثابة السلسلة التي يتدرج فيها العقل في استقصاء الحقائق، وهدف المنهج هو الوصول إلى حقيقة يقينية في العلوم، لهذا يكون المنهج الرياضي نموذجا تطبيقيًا صالحا ودقيقا في دراسة قضايا الطبيعة، كما يكون منهجا صالحا أيضا للتفكير في كل القضايا التي يمكن أن يفكر فيها الإنسان، ومن بينها القضايا الميتافيزيقية التي تحتوي على نظام مفاهيمي خاص تكون فيه الحقائق الميتافيزيقية التي تنطلق من الذات أساسا للحقائق العلمية.

من هذا المنطلق، يكون الإجراء النقدي الذي قام به "ديكارت" يتوفر على إستراتيجية البحث عن الحقيقة، فتكون فكرة الذات التي نظر فيها تحمل قلقا فكريا مستمرا لا تستقر على حال، فيرتفع التفلسف الذي بادر إليه من حضيض التقليد إلى الاستبصار العقلي، حينها سيكون للشك قيمة معرفية وأحد لحظات مواجهة بقايا الأفكار الموروثة التي كان يناصب لها العداء الشديد، وعندها سيعلم عن إفلاسها بعدما يتم التنقيب عن محتواها المعرفي؛ لأنها لا تستجيب بشكل أو بآخر للحاجات الإنسانية الواسعة، كما يساعد على إثارة مختلف التساؤلات التي تنصب حول المفاهيم والأطروحات ما دام تحركه يتجه نحو ضمان الوضوح واليقين في إدراك حقيقة الموضوعات الماثلة أمام الذات، عندما يتم زحزحة الهموم المعرفية من المسائل الدينية ونقلها إلى المركزية الذاتية، التي ستصبح فيما بعد مشروعاً فلسفياً حصبا للتأصيل المفاهيمي الذي تتوسع دائرته.

<sup>1</sup> - رونييه ديكارت: مبادئ الفلسفة، ترجمة عثمان أمين، دار الثقافة للطباعة والنشر، القاهرة، 1974، ص 30.

" لذلك، فلا نستغرب أن يدخل "ديكارت" في تجديد كلامه الفلسفي، فيرجع في هذا التجديد إلى الدلالات التي تضرب جذورها في ماضي اللسان اللاتيني، ويستخرج منها معاني أصيلة وطريفة، جاعلا منها مبادئ لفكره الجديد كما لو كانت البداية المنطقية لفكره تجد لها شاهدا في البداية التاريخية للغة. ولا يتستر أبدا على هذا التأثيل<sup>(\*)</sup>، بل يعتبره لازما ومشروعا ومقبولا؛ فهو ينبهنا بصريح العبارة إلى أنه سيستعمل مفاهيمه الفلسفية في معان غير المعاني التي صارت تدل بها عند معاصريه<sup>1</sup>.

لهذا، سعى "ديكارت" إلى تأطير مشروعه الفلسفي ببعض أمهات المفاهيم الفلسفية عنده، وهي: "الذات" و"الشك" و"الحدس" و"الوضوح" و"الغموض"، و"الحقيقة" و"اليقين" التي تعتبر بمثابة البناء الذي يعمل على توجيه العقل في مساره المعرفي والعلمي والتأثير الحقيقي في مجالات الفكر الفلسفي الأصيل.

#### 4- تجديد الأفق اللغوي:

إن "ديكارت" كان واعيا تمام الوعي، بأن تأسيس مشروعه الفلسفي يحتاج إلى أفق لغوي لبناء المفاهيم الفلسفية التي يتم التعبير عنها بسلوك لغوي مناسب، يرسخ فيه لغة عقلية وفلسفية جديدة تكون قريبة إلى التداول الشعبي، فتتفق مع الحس السليم وتعتمد على قضايا واضحة وبديهية بالنسبة إلى عامة الناس حتى يتسع فعل التفلسف، واستعمال اللغة العقلية كان من شأنه استعمال العقل أيضا، لأن اللغة تجعل الحقيقة في الفكر، وتجعل جوهر الإنسان في النطق، كما تساعد الإنسان على فهم إنسانيته وفهم مضمون الأفكار التي يعتنقها بعيدا عن الغموض والالتباس، في حين كانت اللغة القديمة حافلة بالمضامين العقدية التي تحث على الإيمان والتسليم بالأفكار المسبقة وقبول مضامينها دون أي نظر أو فحص نقدي.

بدأ "ديكارت" يعي بشكل كبير أهمية رسالة العقل ووظيفة الفلسفة كممارسة جريئة تظهر مساعي الفكر نحو اختراق ما هو مألوف، إذ لأول مرة في تاريخ الفلسفة الحديثة ومع "ديكارت"، أصبحت الفلسفة تكتب بلغة شعبية هي اللغة الفرنسية التي لها علاقة مفهومية بالفلسفة في عهدها

(\*) - وهو لفظ استخدمه المفكر المغربي "طه عبد الرحمن" للدلالة عن معنى التأصيل.

1 - طه عبد الرحمن: القول الفلسفي - كتاب المفهوم و التأثيل - المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، ط1، 1999، ص 212.



الجديد، لأن البناء القاعدي للمفاهيم الفلسفية ينسج داخل الحقول اللغوية، فتصبح مهمة اللغة إحداث قطيعة معرفية مع التقليد اللاهوتي الذي كان يقف خلف إحكام السلطة المفروضة على العقل والذي تسبب في حالة من الاحتباس الفكري الذي خيم على المرحلة الوسيطية، فلم يتردد "ديكارت" أن يعلن المساهمة في إطلاق سراح الفكر والعمل على تغيير وتطوير الواقع الفكري والبناء الثقافي الذي يحصل بالاستقلالية الفكرية والحرية العقلية. هذا الانجاز الفلسفي، هو الذي حرر الذات الإنسانية من هيمنة الخطاب الديني ويدخلها في مرحلة الإصغاء إلى الخطاب العقلاني الذي وصلت إليه المجتمعات الحديثة.

من خلال هذه التحولات الفكرية، يرى بعض الباحثين أن "الكوجيتو الديكارتي" : "أنا أفكر أنا موجود"، هو نقطة بداية الوعي الأوروبي العقلاني الحديث، إذ تروم هذه الفلسفة استهداف ثلاثة أمور:

1- إيجاد علم يقيني فيه من اليقين ما في العلوم الرياضية بدلا من العلم الموروث من الفلسفة المدرسية.

2- تطبيق هذا العلم اليقيني تطبيقا عمليا يُمكن الناس من أن يصيروا بمثابة سادة ومالكين للطبيعة.

3- تحديد العلاقة بين هذا العلم وبين الموجود الأعلى، أي الله وذلك بإيجاد ميتافيزيقا تتكفل بحل المشاكل القائمة بين الدين والعلم.

لقد وضع "ديكارت" أساس ثنائية النفس والبدن، والصورة والمادة، الجوهر والعرض، وأكد أن النتيجة التي أعقبت اكتشاف الكوجيتو، هي التمييز الجذري بين الجوهر المفكر والجسم بوصفه الجوهر الممتد. وأوضح في هذا الشأن أن الجسم لا يمكن إدراك حقيقته عن طريق الحواس أو أي عضو آخر منه، وإنما بواسطة العقل نفسه الذي يتوصل إلى معرفة الامتداد بوصفه جوهر الطبيعة. "وبهذا يكون "ديكارت" قد طبع الفلسفة الأوروبية بهذا الطابع الثنائي الذي ورثه عن الفكر اليوناني القديم، هذا الفكر المثالي الذي يلائم الفكر التبريري الديني والعواطف المتطهرة والتصورات الوجدانية للعالم التي يقوم عليها الشعور الديني القديم والمثالية الحديثة"<sup>1</sup>.

1 - حسن حنفي: قضايا معاصرة في الفكر الغربي المعاصر، دار الفكر العربي، القاهرة، ط3، 1987، ص 25.

فهذا النوع من الأفكار سوف تسجل إقبالاً فلسفياً كبيراً حول إمكانية الحفر في هذه الإشكالية التي قام الفلاسفة على تحيينها وإعادة تأهيل هذه المفاهيم التي دخلت بقوة في الفكر الفلسفي المعاصر عندما وجدت مناخاً مهيئاً في صميم التغيرات التي مست الإطار المعرفي والاجتماعي.

من ناحية أخرى، سجلت الفلسفة الديكارتية حضورها الاستيمولوجي أثناء انخراطها في التحولات التي مست المسائل البيولوجية والفيزيائية عندما قامت بمحاولة إعطاء تفسير للإنسان بإدراج جسده ضمن الآلات، "ولكي نفهم هذا النجاح الذي حققه مفهوم الآلة بمعناه الديكارتي، يلزمنا أن نعيد إلى الأذهان أن (الآلة) كانت جزءاً من كل، هو الفلسفة الديكارتية، ومفهوماً من المفاهيم الأساسية لنظرية ديكارت الطبيعية، فمهمته تفسير حركات الأجسام والأجرام ووصفها بما في ذلك جسم الإنسان. لقد نظر إلى الإنسان من زاوية ميتافيزيقية محضة، أي كجوهر مفكر دون انتباه إلى جانب الامتداد فيه والذي يجعله يشارك سائر الكائنات الحية في الآلية والحيوانية وهذا ما يسمح بالقول: أن الفيزياء والميتافيزيقا الديكارتية وجهان لعملة واحدة".

و في هذا السياق، تكون لحظة ديكارت هي لحظة تدشين الفلسفة الحديثة، حين اعتبر أن عملية توضيح المفاهيم كضرورة منهجية ومعرفية تعتمد في صياغتها وقبولها على الكفاءة العقلية، لأن المفهوم الواضح هو الذي ينطوي على معانٍ جليلة وقيم ومبادئ تساهم في دفع المعرفة البشرية إلى حدودها القصوى فيحصل عندها انتظام النسق العقلائي في جميع مستوياته العلمية والفلسفية عندما تأخذ المعرفة وجهة صحيحة في طريقة استنابها للمعارف، "إن المنهج الاستنباطي سيكون أسلوباً معتمداً في توجيه الفكر وقيادته من أجل الوصول إلى الحقيقة، والحقيقة التي يريد "ديكارت" بلوغها، ليست الحقيقة التي يكتفي العقل باكتشافها أو على إعادة بنائها بنفسه، "وهكذا فالحدس والاستنباط والتجربة هي المراحل التي يتعين علينا إتباعها للوصول إلى المعرفة الحقيقية اليقينة، بشرط أن نجد استخدامها بطريقة صحيحة"<sup>1</sup>

في هذا السياق بدأت وتيرة الإحساس بتزايد في الاعتقاد، بأن الفلسفة أصبحت في بيتها كما أكد ذلك "هيدجر"، حيث تكون الذات العاقلة مقياس العلاقة بالوجود، هذه الذات المفكرة، تعد بمثابة الأساس الفلسفي الذي يشيد عليها البنيان المعرفي، فمع "ديكارت" لم يعد الإنسان ذلك

<sup>1</sup> - علي عبد المعطي: تيارات فلسفية حديثة، دار المعرفة الجامعية، الإسكندرية، مصر 1995، ص 54.

الكائن المخلوق المهياً لاستقبال الحقيقة، بل يعد هو صانعها؛ وهذا يعني أن الذات العاقلة أصبحت هي المصدر الوحيد والموثوق فيه لبناء الحقائق التي ستكون قبة للمساءلة الفلسفية المفتوحة عن مفاعيلها المفاهيمية والفكرية التي يعاد وصلها بمختلف الإشكالات التي تنظر فيها الفلسفات اللاحقة.